التوبة النصوح

تأليف

وحيد بن عبد السلام بن بالي

دار ابن رجب



الطبعة الأولى

١٤٢٢ هـ ـ ٢٠٠١م

الناشر

دار ابن رجب

المركز الرنيسي : فارسكور : ٠٥٧/٤٤١٥٥٠ ـ ٠١٢٢٣٨٣٠٣٥٦

فرع المنصورة : محطة الأتوبيس الدولية : ٠٥٠/٢٢١٢٠٦٨

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ، ونستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وبعد ..

فإن العبد مهما قوي إيمانه وعلا يقينه ، لا بد له من هفوات تقع منه وصغائر يلم بها . قال تعالى في وصف المؤمنين : ﴿ **الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ** ﴾ [النجم : ٣٢]

ويقول النبي ﷺ : ((**كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَابُونَ**))[١]

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والدارمي رحمهم الله وقال الألباني في صحيح الجامع (٤٣٩١) : إسناده حسن .

فلا بد لكل مسلم من تجديد التوبة بين الحين والآخر ، ولكن بعض المسلمين يتوبون توبة غـــير نصوح ، ومن هنا كتبت هذه الرسالة وبينت فيها شروط قبول التوبة ، ثم أوضحت الآثار الواردة فيها ، وطبقات التائبين كل هذا بشيء من الاختصار .

وأسأل الله - تبارك تعالى - أن يُوفقنا إلى التوبة النصـــوح ، إنه ولي ذلك والقادر عليه ، وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

وكتبه
الفقير إلى عفو العلام
وحيد بن عبد السلام بالى

السعودية - أبها في يوم الجمعة ١٩شعبان ١٤١٠هـ

التوبةُ طريقُ الفلاحِ

لقد أمرنا ربنا بالتوبة إليه ، فقال : ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّه تَوْبَةً نَصُوحًا** ﴾ [التحريم : ٨]

ثم إن ربنا – تبارك وتعالى – قد بين أن التوبة هى طريق الفلاح ، فقال سبحانه : ﴿ **وَتُوبُوا إِلَى اللَّه جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [النور : ٣١]

فالتوبة ليست خاصة بالمذنب الجانى ، بل عامة في حق جميع المؤمنين الذين يريدون الفوز والفــلاح في الدنيا والآخرة .

فعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((**وَاللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِى الْيَومِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**))[1] ، وعن الأغر بن يسار المزني ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، تُوبُوا إِلَى اللهِ**

---

(١) رواه البخارى في كتاب الدعــوات ، باب استغفار النبي ﷺ في اليوم والليلة (١٠١/١١ فتح) .

وَاسْتَغْفِرُوه ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّة))[١] .

فهذا رسولَ الله ﷺ وهو المعصومَ ، وقدْ غُفرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يتوب إلى الله في اليوم مائة مرة ، وهذا لا يعني العدد بالتحديد وإنما كثرة الاستغفار والتوبة .

ثم إن ربنا – تبارك وتعالى – يفرح لعبده التائب المنيب إليه ، ويضرب رسولنا ﷺ مثلاً لذلك بالرجل الذي خرج في سفر على راحلته ، وبينما هو في وسط الصحراء الجرداء التي لا طعام فيها ولا ماء ، وإذا براحلته التي عليها طعامه وشرابه قد انفلتت ، فظل يفكر ماذا يفعل وهو في وسط تلك الصحراء المهلكة ، فلما أيقن بالموت جاء تحت شجرة فنام ، ثم استيقظ من نومه فإذا راحلته عنده وعليها طعامه وشرابه ، فقام في فرح شديد وحمد ربه تبارك وتعالى وقال من شدة الفرح : اللَّهُمَّ أَنْتَ

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر . باب استحباب الاستغفار والإكثار منه (١٧/٢٤ نووي) .

عَبْدي وَأَنا رَبُّكَ . أخطأ من شدة الفرح ، فالله – تبارك وتعالى – أشد فرحاً بعبده التائب من هذا براحلته .

يقول النبي ﷺ : ((**لله أَفْرَحُ بتَوْبَة عَبْده حينَ يَتُوبُ إلَيه منْ أَحَدكُمْ كَانَ عَلَى رَاحلَته بأَرْض فَلاَة فَانْفَلَتَتْ منْهُ ، وَعَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ ، فَأَيسَ منْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ في ظلِّها ، وَقَدْ أيسَ منْ رَاحلَته فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلكَ إذْ هُوَ بهَا قَائمَةٌ عنْدَهُ ، فَأَخَذَ بخطَامها ، ثُمَّ قَالَ منْ شدَّة الْفَرَح : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدي وَأَنَا رَبُّكَ ، فَأَخطَأَ منْ شدَّة الْفَرَح**))[1] .

وربنا – تبارك وتعالى – لم يُقَنِّط عبادَه ، بل فتح لهم باب التوبة على مصراعيه ، ويظل ذلك الباب مفتوحاً حتى تظهر علامات الساعة الكبرى ، وهي طلوع الشمس من المغرب .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات ، باب التوبة (١٠٢/١١ فتح) باختصار ومسلم في التوبة ، الحض على التوبة (٦٣/١٧ نووي)

فعن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال : ((**إنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسيءُ النَّهَارِ وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ ؛ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**))(١) .

وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**))(٢) .

وعن ابن عمر – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله ﷺ : ((**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**))(٣) .

يُغَرغِرْ : أي عند وصول الروح إلى الحلقوم ساعة

---

(١) رواه مسلم : (١٧/٧٦ نووي) .

(٢) رواه مسلم (١٧/٢٥ نووي) .

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب التوبة مقبولة قبل الغرغرة وقال : حديث حسن .

الاحتضار .

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال :
((كَانَ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسَاً ، فَسَأَلَ عَنْ أَعلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَاهِب فَأَتَاهُ فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسَاً فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَة ؟ فَقَالَ : لاَ ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِه مَائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَم أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالم فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مَائَةَ نَفْس فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَة ؟ فَقَالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَــةَ ، انْطَلَقْ إِلَى أَرْض كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاساً يَعْبُدُونَ اللهَ تَعَالَى فَاعْبُد اللهَ مَعَهُمْ ، وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوء ، فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصفَ الطَّرِيقُ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فيه مَلاَئكَةُ الرَحْمَة وَمَلاَئكَةُ الْعَذَاب ، فَقَالَتْ مَلاَئكَةُ الرَّحْمَةَ : جَاءَ تَائباً مُقْبلاً بِقَلْبه إِلَى الله تَعَالَى . وَقَالَتْ مَلاَئكَةُ الْعَذَابَ : إِنَّهُ لَمَ يَعْمَلْ خَيْراً قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صُورَة آدَميٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ أَيْ حَكَماً فَقَالَ : قيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْن

فَإلَى أَيَّتُهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ ؟ فَقَاسُوا ، فَوَجَدُوهُ أدنى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحْمَة))[١] .

وعن عمران بن حصين ﷺ أن امرأة من جُهينة، أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنـــى ، فقالت : يا رسول الله أصبت حداً فأقمه عليّ ، فدعا نبي الله ﷺ وليها فقال : ((**أَحْسنْ إلَيْهَا فَإذَا وَضَعَتْ فَأْتني بهَا**)) ففعل فأمر بها نبي الله ﷺ فشُدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها .

فقال له عمر : أتصلي عليها يا رسول الله ، وقد زنت ؟! قال : ((**لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسمَتْ بَيْنَ سَبْعينَ منْ أَهْلِ الْمدينَة لَوَسعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدتَّ أَفْضَلَ مَنْ أَنْ جَادَتْ بنَفْسهَا لله عزَّ وَجَلَّ**))[٢] .

وعن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال : قال :

---

(١) رواه البخاري (٥١٢/٦ فتح) ، ومسلم (٨٢/١٧ نووي) .

(٢) رواه مسلم (٢٠٤/١١ نووي) في كتاب الحدود ، باب حد الزنى .

رسول الله ﷺ : ((**لَوْ أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِياً مِنْ ذَهَب أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَان وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ[(١)] إِلاَّ التُرَابُ ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ**))[(٢)].

وعن أبي هـــريرة رضي الله عنه أن رســـول الله ﷺ قال : ((**يَضْحَكُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى رَجُلَيْن يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلاَن الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ ، ثُم يَتُوبَ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ فَيُسْلِمُ فَيُسْتَشْهَدُ**))[(٣)].

---

(١) ولن يملأ فاه إلا التراب : أي لا يزال حريصاً حتى يموت ويمتلىء جوفه من تراب قبره وقتها يقنع .

(٢) رواه البخاري (١١/٢٥٣ فتح) كتاب الرقاق ، باب ما يتقي من فتنة المال ، ومسلم (٧/١٣٩ نووي) . كتاب الزكاة ، باب كراهة الحرص على الدنيا .

(٣) رواه البخاري (٦/٣٨ فتح) كتاب الجهاد ، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم ، ومسلم (١٣/٣٦ نووي) كتاب الإمارة ، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة .

وعن صفوان بن عسال رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : ((**إنَّ مِنْ قِبَلِ المَغْرِب لَبَاباً مَسيرَةُ عَرْضه أَرْبَعُونَ أَوْ سَبْعُونَ عَاماً ، فَتَحَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ للتَّوْبَة يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَات وَالأَرْضَ ، فَلا يُغْلقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ منْهُ**))(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : ((**للجَنَّة ثَمَانيَةُ أَبْـوَابٍ : سَبْعَةٌ مُغْلَقَةٌ ، وَبَابٌ مَفْتُوحٌ للتَوْبَة حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ منْ نَحْوه**))(٢).

وعن أبي هـريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((**لَـوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ**

---

(١) رواه الترمذي في كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل التوبة ، وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) رواه أبو يعلى والطبراني بإسناد جيد ، قاله المنـذري في الترغيب (٥/٢٨١) .

عَلَيْكُمْ))(١).

فلا ييأس المسلم ولا يقنط من رحمة الله فإنه لا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون ، ولكن عليه بالرجوع إلى الله والتوبة النصوح فالله لا يرد تائباً ، ولكن إذا كان قد اقترف معصية في السر فعليه أن يتوب سراً ولا يفضح نفسه وإن كان قد جاهر بفسق ، أو معصية ، أو أي أمر من الأمور التي لا ترضي الله فعليه أن يتوب جهراً حتى يرجع من اقتدى به في هذا الذنب ، أو تلك المعصية .

فعن معاذ بن جبـــل ﷺ قال : قلت يا رسول الله أوصني ؟ قال : ((**عَلَيْكَ بِتَقْوَى الله مَا اسْتَطَعْتَ ، وَاذْكُر الله عِنْـــدَ كُلِّ حَجَرٍ وَشَجَرٍ ، وَمَا عَمِلْتَ مِنْ سُوءٍ فَأَحْدِثْ لَهُ تَوْبَةً ، السِّرُّ بِالسِّرِّ وَالعَلاَنِيَةُ بِالعَلاَنِيَةِ**))(٢).

---

(١) رواه ابن ماجه (١٤١٩/٢) وقال في الزوائـــد : إسناده حسن وقال المنذري في الترغيب (٢٨١/٥) : إسناده جيد .

(٢) رواه الطبراني بإسناد حسن ، قاله المنذري في الترغيب (٢٨٤/٥)

وعن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ قال : ((**وَالَّذي نَفْسي بِيَده لَوْ لَمْ تُذْنبُوا لَذَهَبَ اللهُ بكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنبُونَ ، فَيَسْتَغْفرُونَ الله ، فَيَغْفرُ لَهُمْ**))[1].

وعن أبي ذر ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ((**مَنْ تَقَرَّبَ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ شبْراً تَقَرَبَ إلَيْه ذرَاعَاً ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إلَيْه ذرَاعاً تَقَرَّبَ إلَيْه بَاعَاً ، وَمَنْ أَقْبَلَ إلَى الله عَزَّ وَجَلَّ مَاشياً أَقْبَلَ اللهُ إلَيْه مُهَرْوَلاً ، وَالله أَعْلَى وَأَجَلّ ، وَالله أَعْلَى وَأَجَلّ ، وَالله أَعْلَى وَأَجَلّ**))[2].

وقال النبي ﷺ : ((**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : يَا ابْنَ آدَمَ قُمْ إلَيَّ أَمْشِ إلَيْكَ ، وَامْشِ إلَيَّ أُهَرْوِلُ إلَيْكَ**))[3].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٤٩) .

(٢) رواه أحمد والطبراني وإسنادهما حسن ، قاله المنذري في الترغيب (٥/٢٩٠) .

(٣) رواه أحمد بإسناد صحيح ، قاله الحافظ المنذري في الترغيب (٥/٢٩٠) .

وعن أبي ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**مَنْ أَحسَنَ فيمَا بَقيَ غُفرَ لَهُ مَا مَضَى ، وَمَنْ أَسَاءَ فيمَا بَقي أُخذَ بمَا مَضَى وَمَا بَقيَ**))(١).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ((**إذَا كَثُرَتْ ذُنُوبُ الْعَبْد وَلَمْ يَكُنْ لَهُ مَا يُكَفِّرُهَا ابْتَلاهُ اللهُ بالْحُزْن ؛ ليُكَفِّرَهَا عَنْهُ**))(٢).

وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**كُلُّ بَني آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائينَ التَّوَابُونَ**))(٣).

وعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((**التَّائبُ**

---

(١) رواه الطبراني بإسناد حسن ، قاله المنذري في الترغيب (٥/٢٩١).

(٢) رواه أحمد والبزار ، وإسناده حسن ، قاله الهيثمي في المجمع (١٠/١٩٢) .

(٣) رواه أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه (٢/١٤٢٠) ، والدارمي (٢/٣٠٣) ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٩١) .

مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ))(١).

وعنه أيضاً أن النبي ﷺ قال : ((النَّدَمُ تَوْبَةٌ))(٢).

الآثارُ الواردةُ عنِ السلفِ في التوبةِ(٣)

قال سعيد بن المسيب : أنزل قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ [الإسراء : ٢٥] . في الرجل يذنب ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب ، ثم يذنب ، ثم يتوب .

وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن

(١) رواه ابن ماجه (١٤٢٠/٢ وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٠٥) .

(٢) رواه أحمد ، والبخاري في التاريخ ، وابن ماجه وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٦٦٧٨) .

(٣) راجع إحياء علوم الدين (٢٠٩١/١١) ط الشعب .

يقوم بها العبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين[1] .

وقال عبد الله بن عمر : من ذكر خطيئة أَلَمَّ بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب .

وقيل : إن العبد ليذنب الذنب فلا يزال نادماً حتى يدخل الجنة ، فيقول إبليس : ليتني لم أوقعه في الذنب .

وقال حبيب بن ثابت : تُعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب ، فيقول : أما إني قد كنت مشفقاً منه قال : فيُغفر له .

ويُروى أن رجلاً سأل ابن مسعود عن ذنب أَلَمَّ به هل له من توبة ؟ فأعرض عنه ابن مسعود ، ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان ، فقال له : إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكاً موكلاً به لا يغلق ، فاعمل ولا تيأس .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠١) ، وقال محققه : وأخرجه أيضاً أبو نعيم (٣/٦٥) .

وقال عبد الرحمن بن أبي القاسم : تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى : ﴿ **إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ** ﴾ [الأنفال : ٣٨].

فقال : إني لأرجو أن يكون المسلم عند الله أحسن حالاً.

وقال عبد الله بن سلام : لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب مُنْزل : إن العبد إذا عمل ذنباً ثم ندم عليه طرفة عين ، سقط عنه أسرع من طرفة عين .

وقال عمر ﷺ : اجلسوا إلى التوابين فإنهم أرق أفئدة .

وقال الحسن البصري – رحمه الله – : إن المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله – عز وجل – ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا ، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

إن المؤمن يفاجئه الشيء ويعجبه فيقول : إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي ولكن والله ما من صلة إليك هيهات هيهات حيل بيني وبينك ، ويفرط منه الشيء فيرجع

إلى نفسه ، فيقول : ما أردت إلى هذا ما لي ولهذا والله لا أعود إلى هذا أبداً إن شاء الله .

إن المؤمنين قوم أوثقهم القرآن ، وحال بينهم وبين هلكتهم ، وإن المؤمن أسير في الدنيا يسعى إلى فكاك رقبته لا يأمن شيئاً حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه ، في بصره ، في لسانه ، في جوارحه ، يعلم أنه مأخوذ عليه في ذلك كله[1].أ.هـ.

وقال وهب بن منبه – رحمه الله –: إن في حكمة آل داود : حق على العاقل أن لا يغفل عن أربع ساعات : ساعة : يناجي فيها ربه – عز وجل – ، وساعة : يحاسب فيها نفسه ، وساعة : يفضي فيها إلى إخـــوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة : يخلي بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل فإن هذه الساعة عون

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٣) ، وعزاه الأعظمي لأبي نعيم في الحلية (٢/١٥٧) .

على هذه الساعات ، وإجمام للقلوب ، وحق على العاقل أن يعرف زمانه ، ويحفظ لسانه ، ويقبل على شأنه .

وحق على العاقل أن لا يظعن إلا في إحدى ثلاث

١ – زاد لمعاده .

٢ – ومرمة لمعاشه .

٣ – لذة في غير محرم . اهـ .[(١)]

شُرُوطُ قُبولِ التَّوبَةِ

قال العلماء : التوبة واجـــبة من كل ذنب ، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحـــق آدمي فلها ثلاثة شروط :

أحدها : أن يُقلع عن المعصية .

الثاني : أن يندم على فعلها .

الثالث : أن يعزم ألا يعود إليها أبداً .

---

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (١٠٥) .

فإن فقد أحد الثلاثة لم تصح توبته .

وإن كانت المعصية تتعلق بآدمي فشروطها أربعة : هذه الثلاثة :

والرابع : أن يبرأ من حق صاحبها فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه . وإن كان حد قذف ونحوه مكَّنه منه أو طلب عفوه ، وإن كان غيبة استحلها منه .

ويجب أن يتوب من جميع الذنوب ، فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحـــق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي . اهـــ من كلام النووي رحمه الله [1].

وإليك توضيح هذه الشروط .

---

(١) رياض الصالحين (٣٢/١) مع شرحه نزهه المتقين .

الشرطُ الأولُ : الإقلاعُ عنِ المعصيةِ

لأنه لا تتصور توبة رجل من معصية معينة وهو مازال متلبّساً بها فلابد من الإقلاع أولاً ، وليس المقصود إقلاعاً مؤقتاً بل لابد أن يستمر ويدوم .

ليس هذا فقط بل عليه أن يرد بفكره إلى أول يومٍ بلغ فيه سن التكليف ، ويفتش عما مضى من عمره سنةً سنةً ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، بل ونَفَساً نَفَساً ، وينظر إلى الطاعات التي قصّر فيها وإلى المعاصي التي قارفها . فإن كان قد ترك صلاة فليسارع بتأديتها على أحد قولي العلماء ، أو يؤدي بعددها نوافل . وإن كان قد ترك صوماً أو أفطر عمداً أو أفطر لعذر ولم يقضِ أو غير ذلك فعليه بالمسارعة بقضائه .

وإن كان قد ترك تأدية الزكاة فعليه أن يحسب جميع ماله وعدد السنين منذ أول ملكه للنصاب لا من زمن البلوغ ، فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدي ما فاته منها . وهكذا في جميع الطاعات التي لم يقم بأدائها .

أما المعاصي :

فعليه أن يفتِّش من أول بلوغه عن سمعــه ، وبصره ، ولسانه ، وبطنه ، ويده ، ورجله ، وفرجــه ، وسائر جوارحه . ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ، ويسترجع في ذهنه ما استطاع من معاصيه حتى يطلع على جميعها صغارها وكبارها ، ثم ينظر فيها :

فما كان من ذلك بينه وبين الله – تعالى – كنظر غير محرم وقعود في مسجد مع الجنابة ، أو اعتقاد بدعة أو شرب خمر أو سماع أغاني ... ألخ .

ويطلب لكل معصية حسنة تناسبها ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود : ١١٤] وقال رسول الله ﷺ : ((**اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا**))(١) .

(١) رواه الترمذي وصححه برقم (١٩٨٧) .

فَيُكَفِّر سماعَ الأغاني بسماع القرآن ، ومجالس اللهو بمجالس العلم ، والمكث في المسجد جُنُباً بالاعتكاف فيه لله ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال ، ويكفر النظر إلى النساء الأجنبيات بالنظر في مخلوقات الله من شجر وسماء وأرض وغيرها ، وكل هذا مع اصطحاب الندم والاستغفار .

الشرطُ الثانيْ : الندمُ علَىْ فعلتِهَا

عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : ((**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**))[1]. والندم معناه تَوَجُّع القلب عند تذكره الذنب مع طول الحسرة ، والحزن ، وانسكاب الدمع . وعلامة هذا الندم أن تتمكن مرارة تلك الذنوب في قلبه بدلاً من حـــلاوتها ، فيستبدل بالميل كراهية ،

(١) صحيح : رواه ابن ماجه (٤٢٥٢) وغيره وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٦٧٨) .

وبالرغبة نفرة ، باللذة ألماً .

وأن ينظر إلى نفسه نظـــرة اتهام وازدراء واحتقار ، وإلى غيره نظرة البراءة والطهر والنقاء فيمشي في الدنيا مشية المشفق الخائف .

الشرطُ الثالثُ : العزمُ علَى عدمِ العودةِ

لأنه لو عزم على العودة لا تصـــح توبته ولذلك يقول - تبارك وتعالى -: ﴿ **يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا** ﴾ [التحريم : ٨].

قالَ عمر بن الخطاب ﷺ : التوبة النصوح : يذنب الذنب ثم لا يرجع فيه .

قال عبد الله بن مسعود ﷺ : تَوْبَةً نَصُوحًا . قال : يتوب ثم لا يعود .

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - : ولهذا قال العلماء : التوبة النصوح : أن يُقلع عن الذنب في الحاضر ويندم على ما سلف منه في الماضي ، ويعزم على أن لا

يفعل في المستقبل(١).

وقال الحسن البصري – رحمه الله عليه –: التوبة النصوح أن تبغض الذنب كما أحببته ، وتستغفر منه إذا ذكرته .

الشرطُ الرابعُ : أن يَبْرَأَ مِنْ حَقِّ صاحبِهَا

بأن يُرجع الحق إلى صاحبه ، كمن سرق من رجل ثم أراد أن يتوب عليه أن يؤدي الحق إلى صاحبه ، ثم يستسمحه ، أو يستحل الذنب ، كمن اغتاب مسلماً عليه أن يذهب إليه ويطلب منه العفو والصفح .

ومع ذلك كله أن يدعـــو الله أن يقبل توبته ولا يردها عليه ، وأن يكون مشفقاً خائفاً طوال حياته ، وهذا الإشفاق من موجبات الجنة ، كما قال المؤمنون : ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا**

(١) تفسير ابن كثير (٣٩٢/٤) .

وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٦ - ٢٨].

أقسامُ التائبينَ

يقول أبو حامد الغزالي - رحمه الله - : اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

الطبقةُ الأُولَى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرّط من أمره ولا يحدِّث نفسه بالعـــودة إلى ذنوبه ، إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات ، فهذه هي الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة المطمئنة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية .

الطبقةُ الثانيةُ : تائب سلك طـــريق الاستقامة في أمهات الطـــاعات ، وترك كبار الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه لا عن عمد ولا تجـــديد

قصد ، ولكن يبتلى بها في مجـــاري أحواله من غير أن يقدم عزماً على الإقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرضـــه لها وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد وهذه أيضاً رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحـــوال التائبين ، وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله – تعالى – إذ قال : ﴿ **الَّذينَ يَجْتَنبُونَ كَبَائرَ الإثْم وَالْفَوَاحشَ إلاَّ اللَّمَمَ إنَّ رَبَّكَ وَاسعُ الْمَغْفرَة** ﴾ [النجم : ٣٢].

فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه ، فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه .

قال تعالى : ﴿ **وَالَّذينَ إذَا فَعَلُوا فَاحشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لذُنُوبهمْ** ﴾

[آل عمران : ١٣٥].

فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم ، لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه .

الطبقةُ الثالثةُ : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلبه الشهوة في بعض الذنوب فيقوم عليها عن صدق وقصد شهوة ، لعجزه عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان .

وهو يودُّ لو أقــدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، هذه أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ، ويقول : ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول له نفسه ويسوِّف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم ، فهذه النفس هي التي تسمى النفس المسوِّلة ، وصاحبها من الذين قال الله فيهم :

﴿ وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٢].

فأمره من حيث مواظبتة على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجو ؛ فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته على خطر من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يُختطف قبل التوبة ويقع أمره في المشيئة .

الطبقة الرابعةُ : أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفـــة الذنب أو الذنـــوب من غير أن يحدّث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله ، بل ينهمك الغافل في اتباع شهواته فهذا في جملة المصرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء ، ويخاف على هذا من سوء الخاتمة . اهـــ باختصار[1].

جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله أي الناس خير ؟!

قال : ((**مَنْ طَالَ عُمْرَهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ**)) .

قال : فأي الناس شر ؟

---

(١) الإحياء (٢١٣٩/١٢ : ٢١٤٤) .

قال : ((**مَنْ طَالَ عُمْرَهُ ، وَسَاءَ عَمَلُهُ**))[(١)].

جعلني الله وإياكم ممن قرأ ففهم ، وعلم فعمل
وصلي اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

كتبه

وحيد بن عبد السلام بالي

---

(١) رواه الترمذي بسند صحيح ، قاله ابن حجر الهيثمي في الزواجر (٧٠٠) .

الفهرس